# من هنا وهناك

## وثنية إخوان الصفاء . . . أيضاً

واليوم أعود مرة أخرى إلى مانشره الأديب جبور عبد النور عن معالم الوثنية فى رسائل إخوان الصفاء (١) تعقيباً على ما نشرته فى الرد عليه (٢) ويؤسفنى أن أقول إن الأديب أبى أن يفهم ما كتبته كما أبى أن يفهم نصوص رسائل إخوان الصفاء . بل قل إن هذا الكاتب من طبيعته — كما ظهر فى مقاليه — أن يعمد إلى تشويه النصوص التى أمامه ، فعل ذلك عندما أراد أن يستشهد ببعض نصوص إخوان الصفاء ، وفعل ذلك فى رده علىّ . وعجبى أن يذهب هذا الكاتب إلى أن الدراسات العلمية لا تنكر اقتطاع النص والاستشهاد بجزء منه وطرح بقيته . فمتى كانت الدراسات العلمية غير أمينة فى نقل النصوص ؟ وأى منهج من مناهج البحث العلمى ، الذى يراد به الحق قبل كل شئ ، يبيح مثل هذا الخطأ العلمى الخطير ؟ فالبحث العلمى ومناهجه أحرص على الأمانة العلمية من أن نجزئ النص حسب أهوائنا ، فنأخذ من النص الواحد ما نشاء ونطرح مالم نشاء ، والأمانة العلمية تقتضى أن نأتى بالنص كاملا غير محرف ولا مشوه ، ذلك إذا أردنا أن نحكم حكما صحيحاً أو قريباً من الصحيح ، دون أن يفسد حكمنا هوى أو نزعة من النزعات حتى لا نكون متعسفين فى أحكامنا . فاذا كان اقتطاع النص مستساغاً فى رأى الكاتب وأنه ليس بمنكر لديه ، فانى أرثى لقرائه وتلاميذه أن يلتمسوا علمهم عند رجل يشوه النصوص ، ويزعم أن البحث العلمى لا ينكره ، ولست أدرى من أين جاء الكاتب « بأنى أتجنى على معالم الوثنية عندما ألح أن نحكم على الاخوان من ظاهر كلامهم » . فلو كان الكاتب دقيقاً فى قراءة ما نشر ، حريصاً على فهم ما ورد فى مقالى الأول

---

(١) مجلة « الكاتب المصرى » عدد ٢١ ( يونيه ١٩٤٧ ) ص ١١٦ .
(٢) مجلة « الكاتب المصرى » عدد ١٩ ( أبريل ١٩٤٧ ) ص ٥٦٥ .

دون أن يعمد إلى تشويهه أو تحريفه ؛ لعلم أن الذى نشر بالحرف الواحد هو « أضف إلى ذلك كله أن بالرسائل بعض الرموز التى يصعب الوصول إلى معرفتها وفك أسرارها إلا إذا اطلع على التأويل الباطنى الاسماعيلى ، فلا شك أن هناك علاقة وثيقة بين الاسماعيلية و إخوان الصفاء ، ومعرفة أسرار الاسماعيلية تؤدينا إلى معرفة وفهم نصوص رسائل إخوان الصفاء» . هذا ما نشر لى فى مجلة «الكاتب المصرى» ، وشتان بين ما فهمه الأديب جبور وبين ما نشر . ثم إنى أوردت فى مقالى بعض تأويلات اسماعيلية أشرح بها بعض ما خفى من نصوص إخوان الصفاء ، ولكن الكاتب يأبى دائماً إلا أن ينحرف عن الصواب فى سبيل فكرة اختمرت لديه ، وحاول أن يثبتها بشتى الطرق ولو خالف فى ذلك مناهج البحث العلمى . فالاخوان ذكروا أنهم علويون ، ويأبى الكاتب إلا أن يجعلهم يتخذون ميلهم العلوى تقية و إخفاء للواقع ! ويصرح الاخوان أن هرمس هو النبى إدريس شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من كتاب المسلمين . ولكن الكاتب أبى إلا أن يكون هرمس الاخوان هو « هرمس الحسب » ويذهب أكثر كتاب المسلمين الذين سبقوا إخوان الصفاء ومن جاء بعدهم إلى تأثير الكواكب العلوية فى عالم الكون والفساد فلم يرمهم أحد بالوثنية ، ولكن الكاتب يلح فى القول بأن الإخوان وثنيون لذهابهم هذا المذهب إلى غير ذلك من هذه الأحكام التى لا يقرها منطق أو بحث علمى يقوم على التدقيق والتمحيص . وما أكثر ما زهى الأديب جبور عند ما نقل عن عبدالقاهر البغدادى ما ذكره عن الباطنية ، ولو كان الكاتب قرأ ما كتبناه عن أصحاب كتب الفرق وعن غيرهم ممن تحدثوا عن الباطنية (١) لعرف أن هؤلاء — ولا سيما البغدادى والباقلانى — كتبوا بوحى تعصبهم المذهبى قبل أن يكتبوا كتابة تاريخية يقبلها البحث الحديث . فقد ذكرت فى مقدمة كتاب «المجالس المستنصرية» بعض العلماء الذين طعنوا فى مذهب الباطنية ، فقلت إنهم بين رجل متعصب لمذهبه ، وبين رجل أراد الحق فخلط

(١) المجالس المستنصرية . ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة . راحة العقل . السيرة المؤيدية . مع ملاحظة أن الاسماعيلية تشعبت إلى عدة فرق وكلامنا الآن ينصب على الاسماعيلية الذين حكموا عدة بقاع إسلامية باسم « الدولة الفاطمية » وهى الشعبة التى وصلتنا كتبهم وعقائدهم ، أما غيرها من الشعب فلا نكاد نعرف من أمرها شيئاً .

بين الباطنية وبين غيرها من الفرق . والقاضى العادل إذا أراد أن يحكم بين خصمين فعليه أن يستمع إلى أقوالهما جميعاً ، أما أن يأخذ برأى جانب واحد فقط فلا قضاء ولا عدل ؛ وهذا ما فعله صاحبنا الأديب جبور عندما استشهد برأى البغدادى الذى تظهر فى كتاباته روح العصبية المقوتة عند المحدثين .

ولا يتوهم الكاتب كما توهم من قبل أنى أدافع عن الباطنية أو أنى أقول بأنهم لم يخرجوا عن التقاليد الحنفية . فالذى استطعت أن أثبته بعد دوام قراءة ما كتبه دعاة الاسماعيلية أنهم فى عبادتهم العملية التى أطلقوا عليها اسم العبادة الظاهرة ، لا يكادون يختلفون عن العبادة العملية عند كافة المسلمين فهم يقومون بجميع فرائض الدين من طهارة وصلاة وزكاة الخ ولكن تأويلهم الباطن هو الذى يخالف ما عليه إجماع المسلمين . وقد شرحنا شيئاً من ذلك فى كتبنا (١) ولو أراد الكاتب أن ندله على الوثنية فى آرائهم وفى رسائل إخوان الصفاء لاستنفد ذلك عدة مقالات ، ولخرجنا عن موضوع المناظرة التى بينه وبينى ، والتى أريد بها أن أبين أن نصوصه التى يستشهد بها على وثنية الاخوان لا تثبت وثنية الاخوان بأى حال من الأحوال ، فليبحث عن نصوص أخرى لعله يهتدى ويوفق .

أما قول الكاتب إننا نجد فى تضاعيف الرسالة ما نشاء من المذاهب الدينية والفكرية . . . الخ ، فهذا ليس بجديد ، وقد سبق أن ذكر أستاذنا الدكتور طه حسين بك ذلك كله فى مقدمته لرسائل إخوان الصفاء ، وذكر ذلك كل المستشرقين الذين بحثوا رسائل الاخوان . وأحب أن أقول الآن إن مذهب الاسماعيلية كله — لا فى رسائل إخوان الصفاء فقط — أخذ عقائده عن المذاهب الفلسفية اليونانية القديمة ، وعن الأفلاطونية الحديثة ، وعن الفارسية القديمة ، والحرنانية المخمسة ، وبالاختصار عن كل المذاهب التى عرفها العالم قبل الاسلام وبعده ، حتى عصرهم ، وأن الاسماعيلية اتفقوا مع المعتزلة فى مسائل وهاجموا المعتزلة فى مسائل أخرى ، واتفقوا مع الشيعة الاثنى عشرية فى أمور وخالفوهم فى أمور ، وأخذوا عن غلاة الشيعة أشياء

(١) راجع تعليق واحد فى الصفحة السابقة .

وهاجموا الغلاة فى أشياء . وهكذا كان الاسماعيلية — ومنهم إخوان الصفاء — سبباً فى أن تدخل بعض المذاهب القديمة فى الاسلام ، وقد ذكرنا ذلك كله فى بحث لنا نشر بمجلة « الراوى الجديد » عدد أول نوفمبر سنة ١٩٤٣ ، وفى المقدمة التى كتبناها فى نشر «ديوان المؤيد» داعى الدعاة وأتينا فى البحثين بنصوص صحيحة غير مشوهة ولا محرفة ولا ناقصة تؤيد القضية التى سقناها .

ونعود بعد ذلك إلى ما كتبه عن فصل الدين عن الدنيا ، نقد أرشد الله الأديب جبور إلى الصواب فأقر بما حاول ألا يقر به فى بحثه الأول . فالنتائج التى انتهى إليها فى مقاله بمجلة «الكاتب المصرى» تختلف عما أراده وما نشره فى مجلة « الأديب » البيروتية ، وهو لم يصل إلى هذه النتائج إلا بعد أن أتى بنصوص الاخوان كاملة بدلا من هذه النصوص المسوخة التى أتى بها من قبل ، فأهنئ الأديب الكاتب لرجوعه إلى الحق . ولكن هناك مسألة أحب أن ألفت إليها نظر الكاتب وهى نظرية الاسماعيلية ومنهم الاخوان فى الخليفة . فالاسماعيلية يفرقون بين الامام والخليفة ، فالامام هو صاحب الحق الشرعى المنصوص عليه من نسل النبى الكريم ، والخليفة هو الذى استولى على الملك دون حق ومنع صاحب الحق حقه . فاذا كان الامام هو صاحب السلطة الدنيوية فهو إمام وخليفة . فمثلا نرى فى كتب الدعاة فى العصر الفاطمى أن صاحب الأمر فى مصر كان يسمى بالامام وبالخليفة معاً ، ولكن بعد أن انقسمت الدعوة بعد المستنصر الفاطمى سنة ٤٧٨ هـ ، لم يعترف النزاريون بامامة المستعلى بن المستنصر فسموه بالخليفة . وبعد أن انتقل مركز الدعوة إلى اليمن بعد وفاة الآمر بن المستعلى وعرفت هناك باسم الدعوة الطيبية ، كانوا ينظرون إلى الحافظ والظافر والفائز والعاضد — آخر خلفاء الدولة الفاطمية — نظرتهم إلى الخليفة الذى اغتصب ملك الأئمة الشرعيين . وعلى ذلك يستطيع الأديب جبور أن يغير من رأيه فى تأويل الخليفة عند إخوان الصفاء وعند الاسماعيلية ؛ فان الخلفاء عندهم هم الملوك من أصحاب الدنيا ، واذن لم يخالف إخوان الصفاء ما عليه مؤرخو المسلمين وما جاء فى القرآن الكريم من التفريق بين صاحب الدين وصاحب الدنيا . أما أن الاخوان كانوا يأخذون بنظام الفيثاغوريين لتحقيق مبادئهم ، فواضح من رسائلهم أنهم متأثرون بالفيثاغوريين فى مبادئهم

الفلسفية ، ولا سيما فى فلسفة الأعداد . فلا غرابة أن يتبع الاخـــوان الفيثاغوريين ونظمهم للوصول إلى غايتهم وهى إخضاع العالم الاسلامى لعقائدهم ولسلطان إمامهم العلوى الاسماعيلى .

أما ما ذهب إليه الأديب من « أن القول بأن التنجيم من الأمور التى ألفها الناس فى حضارة العرب كما أنها عرفت فى الحضارات القديمة ولا يزال بعض الناس يؤمنون بها فهو قول فاسد » فهذا يضطرنى إلى أن أسوق للأديب ما قاله العلامة جورج زيدان فى كتابه « تاريخ التمدن الاسلامى »: « وأول من عنى بالتنجيم والنجوم فى النهضة العباسية أبو جعفر المنصور، فترجموا له السندهند واقتدى به خلفاؤه وأصبح للتنجيم شأن كبير عندهم حتى، فى إبان العصر العباسى ، وكان المنجمون فئة من موظفى الدولة كما كان الأطباء والكتاب والحساب ولهم الرواتب والأرزاق وكان الخلفاء يستشيرونهم فى كثير من أحوالهم الادارية والسياسية . فاذا خطر لهم عمل وخافوا عاقبته استشاروا المنجمين فينظرون فى حال الفلك واقترانات الكواكب ثم يشيرون بموافقة هذا العمل أو عدمه ، وكانوا يعالجون الأمراض على مقتضى حال الفلك ، وكانوا يراقبونها ويعملون بأحكامها قبل الشروع فى أى عمل حتى الطعام والزيارة ، على أن علماء الشرع الاسلامى كانوا يبينون فساد هذا الاعتقاد ويخطئونه ويردونه ، والناس على اعتقادهم ولا يزال بعضهم على ذلك إلى اليوم [1] . » ولعل الكاتب يتذكر قصة فتح عمورية وقصيدة أبى تمام التى مطلعها :

السيف أصدق إنبـاءمن الكتب
فى حده الحد بين الجد واللعب

ولعله قرأ تلك القصص العديدة عن أبى معشر البلخى المتوفى سنة ٢٧٢ وكيف كان يتكسب بالتنجيم ، إلى غير ذلك من الأدلة العديدة التى لا حصر لها على أن علم التنجيم كان يسير مع علم الفلك جنباً إلى جنب فى تاريخ الحياة عند المسلمين . وكنت أحب أن يتم الأديب جبور نص ما اقتبسه عن الأستاذ نالينو ولا يقتطع منه حتى تم الفائدة . فقد ذكر أستاذنا نالينو ما ترجمته : « وقد أجمع المتكلمون والفقهاء والفلاسفة على إنكار التنجيم

---

(١) ج ٣ ، ص ١٨٦ ( الطبعة الثانية ) .

ولم يشذ عنهم إلا نفر قليل كالكندى وإخوان الصفاء وفخر الدين الرازى . ولم يكن لهذا الانكار من أثر فى الواقع ؛ ذلك أن التنجيم كان له شأن فى قصور الخلفاء والسلاطين وبين العامة ، وظل كذلك إلى القرن الماضى فكان فى دخول الحضارة الغربية عامة ومذهب كوبرنيقوس خاصة القضاء المبرم على التنجيم ، بيد أنه لا يزال موجوداً فى البلاد التى لم تصب من الحضارة الغربية إلا قليلا . (١) » فكيف نتعسف فى أحكامنا ونرمى إخوان الصفاء وحدهم بالوثنية لأنهم ذهبوا هذا المذهب ؟ وكيف يكون قولنا فاسداً لأننا قلنا إن التنجيم كان معروفاً سائداً فى البلاد الاسلامية ؟ هذا ما لم أعرف تعليله .

وقد قلت فى مقالى السابق إن التأويل الباطنى للعبادة الفلسفية هو العبادة الباطنية التى دان بها الاسماعيلية ومنهم إخوان الصفاء . ولكن الأديب جبور عاد واتخذ ظاهر كلام الاخوان وفسره تفسيراً ظاهريا أيضاً دون أن يفطن إلى أسرارهم ويدرك تأويل كلامهم ، فذهب الى ان العبادة الفلسفية هى العبادة الوثنية الحرانية ، ولا أجد الآن متسعاً من الوقت للتدليل على ما ذهبت إليه ولا سيما أنى أعمل الآن فى نشر كتاب « راحة العقل » ففى هذا الكتاب بالذات ما يشفى غلة الأديب جبور ويطلعه على بعض أسرار العبادة الفلسفية ، وسيرى أن هذه العبادة ليست بوثنية حرانية ! بل هى صبغ الآراء الفلسفية القديمة والمذاهب الدينية المختلفة بالصبغة الاسلامية . فلننتظر صدور هذا الكتاب الذى سيميط اللثام عن كثير من أسرار الاخوان .

وأختم كلمتى بأن أسأل الأديب جبور هل ثبت لديه أن مؤلفى الرسائل هم هؤلاء الذين وردت أسماؤهم فى كتاب المقابسات وفى أخبار الحكماء للقفطى حتى يذهب إلى أن الذين عرفوا بمساهمتهم فى الرسائل رموا بالخروج عن المألوف فالاخوان إذن وثنيون ؟ وما علاقة الحكيم المجريطى برسائل إخوان الصفاء ؟ فاذا استطاع الأديب أن يأتى لنا بشئ جديد عنهم فيكون قد فتح لنا فتحاً جديداً فى هذا اللون من الدرس بعد أن أعيانا البحث فى ذلك .

محمد كامل حسين
مدرس بكلية الآداب

(١) راجع الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية مادة التنجيم .